غسان سلامة

# أبطال الحداثة وشهداؤها

نقف اليوم، عشية الذكرى الالفين لولادة المسيح، امام مفارقة مذهلة. فللمرة الاولى على امتداد كل هذه القرون المنصرمة، يفوق عدد اليهود المقيمين في منطقة "الهلال الخصيب"، عدد المسيحيين. وقد يرى المرء عن حق ان هذه المعادلة المؤلمة صورة ناصعة من صور انتصار المشروع الصهيوني وقد تمكّن اربابه من تأمين هجرة الملايين من يهود الشتات الى فلسطين، حيث انشأوا موطئ قدم لهم تحول، قرناً بعد مؤتمر بال الصهيوني الاول، دولة عاتية تتملك من القوة الذاتية ما ليس للدولة القديمة، اقتصادياً وتكنولوجياً وعسكريا، وتتمتع بدعم دولي يحسدها عليه القاصي والداني بدءاً بنوع من السيطرة المتغطرسة على مركز القرار في اقوى دول العالم على الاطلاق، اي الولايات المتحدة الاميركية.

في المقابل، ما انفكت اعداد المسيحيين تتناقص في كل دول المشرق من دون استثناء، اذ تدنت نسبتهم المئوية الى مجمل السكان في صورة مريعة في كل مكان، بل ان اعدادهم المطلقة تدنت هي الاخرى، حتى أمسى حجمهم الديموغرافي في غير بلد اقل اليوم مما كان لعقدين من الزمن. ولو لم يكن مسيحيو لبنان على ما نعرفه عنهم من النرجسية المرضية لاعترفوا بان "الاحباط" الذي ما انفكوا يقولون انه يسكنهم، ليس شيئاً مقابل الاحباط الحقيقي، الصامت والعميق، بل المأسوي، الذي يخيم الآن على ابناء ديانتهم في سوريا والعراق، والاردن وفلسطين، ومصر والسودان. وبينما شكلت اسرائيل بديلاً ليهود البلاد العربية هاجروا وهجّروا اليها، من خلال تعاون ضمني او معلن مع السلطات العربية القائمة (مثلما حصل في عراق الاربعينات ويمن الخمسينات وسودان السبعينات)، فان مسيحيي المنطقة اعدموا في الواقع ملجأ من صلب المنطقة فهاجروا في اكثريتهم الساحقة الى بلاد العالم الواسعة، الى البرازيل وكندا واوستراليا واسوج وغيرها، بينما ما استطاع لبنان، وكان في امكانه ان يلعب دوراً اكبر في ذلك، استقطابهم لعلة عميقة في توازناته الداخلية، وتالياً لحرب منفرة سهلت في هجرة ابنائه الاصائل، فما بالك باستقطاب مواطني جاراته من الدول.

من هنا هذا الترابط العميق بين قيام المشروع الصهيوني ونجاحه وتوسعه من جانب، وتفاؤل الحضور المسيحي من آخر وهو ترابط متين يتجاوز مجرد التزامن والتوازي. وما بعض الامثلة عن امكانات تعاون وتعاضد بين الصهاينة وبعض مسيحيي الشرق الا حالات نافرة واستثناءات طارئة، ذلك ان تداعيات قيام اسرائيل تحولت كارثة على المسيحيين العرب فسرعت من هجرة الفلسطينيين من ابناء يافا ورام الله، وتحوّل حيهم في القدس نقطة تنازع بين الخلايلة من مواطنيهم المسلمين والمستعمرين اليهود. واذا اعتبرنا ان السبب الاساسي في حرب لبنان الدامية كان تأثره بمجريات النزاع العربي – الاسرائيلي (وهو ما نرى)، للمسنا مثلاً آخر، بالغ الاهمية، لتلك الكارثة.

**مفتاح المرحلة المقبلة في يد النخب الاسلامية، فإن هي رأت في تقلص مساحة المسيحيين سبباً للشعور بالفوز، فهي المساهم الاول في تسريع وتيرة ما نرى من هجرة وتهجير**

ويقيني ان المشروع الصهيوني لم يتضمن عملياً فصلاً خاصاً واضحاً يتعلق بالمسيحيين، رغم بعض الاشارات العابرة في بعض كتاباته. بل يفاجأ المرء مثلاً، وهو يقرأ مذكرات ايلي خضوري، العراقي اليهودي، بأنه لا يذكر مسيحيي العراق ولو مرة واحدة وكأنهم غير موجودين، في حين انه يستفيض في استذكار الملل الاسلامية كلها. وكأن هدف الصهاينة الضمني كان دفع مسيحيي المنطقة لترداد تساؤل القاص الفلسطيني انطون شماس: "مالي ولهذا الصراع من حولي...". لكن النتيجة واحدة: فاذا تجاهل المشروع الصهيوني مسيحيي المنطقة، فانه يساهم في الغائهم ذهنياً، واذا هو استنبط لهم دوراً يميزهم عن مواطنيهم المسلمين فانه "يخرّب بيوتهم".

***

لكن مسألة تضاؤل الحضور المسيحي في المشرق لا تختزل طبعاً الى ما رأته اسرائيل ولا الى ما فعلت يداها بهم. انها معضلة اعمق واوسع. ولما ارتباط اول، ليس في الضرورة سياسياً، بنسبة التوالد بينهم، المحدودة دوماً بامتناع تعدد الزوجات، وأحياناً باستحالة الطلاق، واجمالاً بوجود كثيف في المدينة وكلما عناصر تضعف نسبة التوالد تلك. أضف الى ذلك عنصراً ثقافياً فائق الاهمية، هو ان نسبة التعلم بينهم كانت، لعقود عديدة مضت، اعلى من مثيلتها عند المسلمين، وقد اثر هذا السبب الثقافي أيضاً في تدني نسبي في عملية التوالد الطبيعي (كما في كل المجتمعات وخصوصاً عندما يطاول التعليم البنات).

لكن العنصر الثقافي لعب دوراً أكبر في الايديولوجيا منه في علم السكان، ذلك ان تعلّم المسيحيين أدى أيضاً الى حالٍ اوسع من التماهي مع الغرب الذي كانت مدارسه احدى أهم مؤسسات التعلم بينهم. فازداد ولا شك تألق الغرب في اذهانهم، وتقلصت تالياً الاخطار والمواجس التي تنتاب من يسعى للهجرة اليه. ثم انهم "استفادوا" ولا شك من قدر من التماهي السياسي الغربي معهم مما ميزهم عن مواطنيهم المسلمين في القدرة القانونية، والثقافية، للحصول على تأشيرات السفر والهجرة. واذا صحت خلاصات علماء السكان بان الضائقة الاقتصادية كانت ولا تزال السبب الاول في الهجرة والاغتراب في بلادنا كما في كل اصقاع الارض، فان العنصر الثقافي أدى ولا شك دوراً مسرعاً عند المسيحيين في تنفيذ اي مشروع هجرة (أوّليس "الاغتراب"، بالذات، انتقالاً نحو "الغرب"؟).

وينطبق الامر عينه على قيام الانظمة الاستبدادية وعلى الرغبة بالابتعاد عنها، كما على نشوء الحركات الدينية المتطرفة والمواجس التي تنبع من خطابها ومن بعض ممارساتها. فقد يشعر المرء في كلتا الحالين بالرغبة بالابتعاد، ولكن للمسيحي أسباب (وامكانات) اضافية قد لا تتوافر بالسهولة نفسها لمواطنه المسلم، للاقتراع ضد هاتين الظاهرتين هجرة عنهما.

هكذا بدأ مسيحيو المشرق عصر النهضة كابطال الحداثة، وها هم اليوم اعظم ضحاياها، (ان لم نقل اعظم شهدائها). فهم ساهموا، اكثر مما كان وزنهم الديموغرافي البحت يفترض بكثير، بادخال عناصر الوطنية والقومية ومقتضيات الدولة العصرية، كما بتعظيم شأن الانتماء اللغوي والثقافي على حساب التعاضد الديني والهويات التقليدية. وانخرطوا في مؤسسات الحداثة، من جيوش، ومصارف، وجامعات واحزاب ونقابات، بحماسة تبدو مضاعفة بالمقارنة مع مواطنيهم المسلمين. لكن الحداثة، حين توطدت عناصرها في الواقع انقلبت في الاجمال ضدهم. فهي كانت انتقائية اعتباطية في خياراتها (فلنتذكر مثلاً موقف عبد الناصر الملتبس من مواطنيه الاقباط، رغم اعتناقه الحداثة في مواقع ومسائل أخرى).

هذا لا يعني ان الحداثة السياسية نبذت المسيحيين من صفوفها. فهم وجدوا موقعاً لهم في العراق من رافائيل بطي الى طارق عزيز، ◀

وفي سوريا من فارس الخوري الى ميشال عفلق، وفي فلسطين من الفريد روك الى جورج حبش، وفي لبنان طبعاً. لكن موقعهم فيها كان طليعياً ثم أمسى، في صورة متدرجة ولو متفاوتة من مجتمع لآخر، هامشياً. وهم دفعوا اكثر من اقرانهم المسلمين، ثمن التأفف الشعبي من الحداثة السياسية، والمراجعة الموجعة لنتائجها، التي نرى بعض مظاهرها في نمو الفكر السلفي واتساع رقعته، محمولاً على اكف عائدات نفطية تعاظم تأثيرها السياسي في الربع قرن المنصرم، بينما لا وجود يذكر للمسيحيين في بلاد النفط (كقطر او ليبيا) بل لا نشاط دينياً مقبولاً لهم (كما في السعودية).

***

تكثر الافكار والدراسات السائدة من التركيز على علاقة المسيحيين العرب بالسلطة السياسية: فمنذه تحميهم وتلك تنكل بهم، وهذه تستقربهم واخرى تنفرهم. وبدا هذا الاهتمام بموقف اصحاب السلطة منهم امراً طبيعياً، لأن تلك السلطة هي في الاجمال مطلقة، ولخياراتها تالياً، ايجابية كانت ام سلبية، نتائج ملموسة على اوضاع المسيحيين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وبما ان النزعة الشعبوية قد غلبت في عقود الاستقلال على غيرها من الايديولوجيات في تحديد علاقة السلطات بالناس، فان المسيحيين مالوا اجمالاً لاعتبار السلطة الشعبوية غير مؤاتية لهم ان لم تجنح عملياً لاستعدائهم، لحاجة كل سلطة شعبوية الى خطاب ديماغوجي "اكثري" لا يناسب اجمالاً الاقليات، دينية كانت، ام طائفية ام لغوية.

لذلك فكروا في الرحيل، واقدموا عليه، عندما لم تدفعهم اليه بعد طول ممانعة اهوال الحروب الاهلية، وكما كان من كاتب هذه السطور، (موقتاً؟). لكن المقبل من الزمن قد يدفعهم الى اهتمام اقل بعلاقتهم بالسلطة، واندفاع اكبر لصياغة علاقة اخرى بمواطنيهم. ليست هذه دعوة لانفصام علاقتهم بالسياسي، لان الامر في الحقيقة مستحيل، ولكنه امل بعدم استمرارهم في اختزال معضلتهم الى عنصرها السياسي. وبصع تحول كمذا مسؤولية اكبر على كاهل نخبهم، لكنه يرمي الكرة، بالقوة نفسها، في ملعب النخب الاسلامية، خارج اطار السلطات القائمة، موالية كانت ام معارضة، مشدودة كانت الى السياسة ام معرضة عنها. ويقيني ان مفتاح المرحلة المقبلة هو في يد هذه النخب الاسلامية فهي ان اشاحت الوجه عن ظاهرة تقلص مساحة المسيحيين في محيطها وفي افقها، او، وهذا ادهى، ان هي رأت في ذاك التقلص سبباً ما للشعور بالفوز والانتصار، فهي المساهم الاول في تسريع وتيرة ما نرى من هجرة وتهجير. اما اذا هي رأت خطورة ما هو حاصل، ودعت الى دفع الثمن الضروري لوقف حصوله او حتى لتغيير وجهته، فانما تكون فعلاً صاحبة رؤيا ما تميزت بها سابقاتها في العقود القليلة الماضية ■